عيّنة من الرواية

(للتصفح والاطّلاع)

بسم الله الرحمن الرحيم

شيرلوك هولمز

عَلامَةُ الأرْبَعَة

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية شيرلوك هولمز
المنشورة أول مرة عام ١٨٩٠ بعنوان

The Sign of the Four

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا
الكتاب بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو
إلكترونية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٢٠

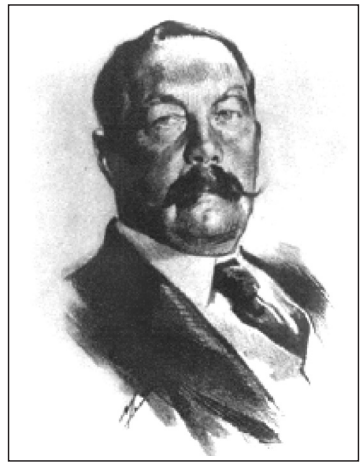

آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في سكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطَرَّته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه

إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلّات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص، وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري. وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة في اللون القِرْمِزي» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

واحدة من تلك الحوادث كانت عن رجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث بدَّل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلَّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى

سكتلندا تغادر محطة كِنْغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور آرثر كونان دويل في حرب البُويِر (التي دارت في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولَقَبها «سيرْ» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

توفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل".

وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من

هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (شارع بيكر، ٢٢١ب) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته

وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِيةُ القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو، المحقق الشهير الذي ابتكرته أغاثا كريستي). وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وحصل على شهادته الجامعية في الطب سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش وشارك في الحملة الأفغانية، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية عام ١٨٩٣ «قَتل» دويل بطلَه شيرلوك هولمز، لكنه واجهَ احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة في اللون القِرْمِزي»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، هي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

في السنة التالية بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشُغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة، نُشر

آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «مذكرات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة، وعنوانها «المشكلة الأخيرة»، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يَحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على إعادة إحياء شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الفارغ» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد، فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الفارغ) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كولْيِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة

«عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣. ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥) التي حازت على إعجاب النقّاد في كل الأوقات. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومَنْسيّة ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب غير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من مؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفِسور تشالنجر

(أشهرها رواية «العالَم المفقود») ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *

رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ قصص هولمز منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» كل من وُلْتَر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وتشارلز هَليدي وأَلِكْ بول وجوزف سمبسون وهنري بروك. أما السلسلة الأخيرة (قضايا شيرلوك هولمز) فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم هَوارد إلْكوك وفرانك وايْلز وألفرِدْ جِلبرْت.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند». أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كولِيرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردرِك دورْ ستيل، ومنهم جوزف فريدرتش ورِتشارد غوتشمت ووليَم هايْد.

* * *

عَلامَةُ الأرْبَعَة

نُشرت في مجلة «لِبنْكَت»
الشهرية في عدد شباط (فبراير)
١٨٩٠

تنويه من «الأجيال»

لاحظنا أن هذه الرواية من أفقر روايات وقصص شيرلوك هولمز بالرسوم، فقد عثرنا لها على ١٨ صورة لا غير، منها ٨ من رسم رتشارد غوتشمت (١٩٠٢) و٦ من رسم فردريك تاونْسِنْد (١٩٠٣) وصورة واحدة من رسم هوغو ماتانيا (١٩٤٨) وثلاثٌ مجهولةُ الرسّام.

فاجتهدنا في البحث في أعداد مجلة «ستراند» القديمة واستخرجنا منها بعض الرسومات التي وجدناها ملائمة (مع تعديلٍ أجريناه على بعضها لتمثل شخصيات الرواية) وهكذا زادت صور الكتاب من ١٨ إلى ٣٨.

وإنما دفعَنا إلى هذا الاجتهاد الحرصُ على إثراء الرواية بالرسوم بحيث تصبح في مستوى مقارب لبقية الروايات، ونرجو أن نكون قد وُفِّقنا في الاجتهاد.

الفصل الأول

علم الاستدلال

تمدد شيرلوك هولمز في مقعده بجانب المدفأة وقال بسأم: إن عقلي ينفر من الركود. أعطني عملاً، هات أشد القضايا تعقيداً لأحلّها، فأنا أكره روتين الحياة اليومية وأتوق إلى الإثارة الذهنية، لهذا السبب اخترت مهنتي المميَّزة، أو بالأحرى أنا ابتكرتها لهذا السبب، لأنني الوحيد الذي يمارسها في العالم.

قلت وأنا أرفع حاجبَيّ بدهشة: أنت المخبر الخاص الوحيد؟

قال: بل أنا المخبر الاستشاري الوحيد والملاذ الأخير، فحين يعجز ليستراد أو غريغسون أو أثيلني جونز عن حلّ مشكلة ما يأتون بها إليّ، فأدرسها ثم أرشدهم إلى حلها بلا مقابل ودون أن أطالب بأي فضل ولا بذكر اسمي في الصحف، لأن مكافأتي الحقيقية هي في العمل نفسه، في لذة استغلال قدراتي المميزة التي شهدتَ بنفسك بعضاً منها في قضية جفرسون هوب.

قلت بودّ: أجل، فعلاً، فلم يسبق لي أن تأثرت بشيء كما تأثرت بتلك القضية، حتى إنني جمعت أحداثها في كتاب سمّيته «دراسة في اللون القِرْمِزيّ».

هز رأسه بحزن وقال: لقد ألقيت نظرة على ما كتبت ولا أستطيع تهنئتك عليه، لأن الاستدلال والتحليل علم محدَّد، أو يجب أن يكون كذلك، ولا بد من التعامل معه بشكل بارد محايد وليس بالطريقة الرومَنسية التي صوّرتَه بها. لو أنك حاولت دمج قصة حب في نظرية إقليدس لكانت النتيجة مشابهة لما صنعتَه في كتابتك عن هذه القضية!

اعترضت قائلاً: ولكن الرومَنسية كانت موجودة أصلاً، أنا لم أتلاعب بالحقائق.

قال: بعض الحقائق يجب طمسها، أو على الأقل يجب فرض قدر مناسب من التوازن عند التعامل معها، فالنقطة الوحيدة التي كانت تستحق الإسهاب هي الطريقة التي نجحتُ بها في حل القضية عن طريق التحليل المنطقي والانتقال المتسلسل من النتائج إلى الأسباب.

انزعجت من هذا النقد اللاذع لعمل صنعته بالأساس لكي أدخل السعادة على قلبه، وأعترفُ أنني شعرت أيضاً بالضيق من غروره، فهل كان عليّ أن أسخّر كل سطر في قصتي لأفعاله المميزة؟!

خلال السنوات التي عشت فيها مع شيرلوك هولمز في مسكننا بشارع بيكر لاحظت في مرات كثيرة أن سلوكه الهادئ

المَيّال إلى إلقاء المواعظ مبطَّنٌ ببعض الغرور. ولكني لم أتفوّه بأي تعليق، بل جلست أعتني بساقي الجريحة، فقد أُصبت أثناء الحملة الأفغانية برصاصة من بندقية قناصة، وعلى الرغم من أنها لم تمنعني من المشي إلا أنها كانت تؤلمني بشدة عند كل تغير للطقس.

حشا هولمز غليونه وقال بعد لحظة: لقد امتد عملي إلى أوروبا مؤخراً، فقد استشارني فرانسوا لي فيلارد (وربما عرفت أنه صار في مقدمة المحققين الفرنسيين منذ عهد قريب) وعلى الرغم من أنه يتمتع بسرعة البديهة إلا أنه لا يُلمّ بالمعرفة الواسعة اللازمة لتطوير مهنته بشكل أكبر. كانت قضية تتعلق بوصية غريبة وفيها بعض السمات المثيرة للاهتمام، وقد وجّهت انتباهه إلى قضيتين مماثلتين، إحداهما وقعت في ريغا عام ١٨٥٧ والأخرى في سينت لويس عام ١٨٧١، فتوصل إلى الحل الصحيح، وها هو خطابٌ استلمته منه صباح اليوم وفيه يشكرني على مساعدتي.

قدمه إليّ وهو يتكلم، فمرَرت بعيني عليه ولاحظت وفرة عبارات الإعجاب التي تشهد بالتقدير الشديد الذي يكنّه هذا المحقق الفرنسي لهولمز. قلت: إنه يتحدث إليك كما يتحدث التلميذ إلى أستاذه!

- إنه يغالي في تقدير مساعدتي له، فهو نفسه يتمتع بموهبة كبيرة ويمتلك بعض أهم صفات المحقق المثالي: قوة الملاحظة والقدرة على الاستنتاج. لا تنقصه إلا المعرفة،

وهي تُكتسَب بمرور الوقت. إنه يترجم أعمالي المتواضعة إلى الفرنسية في الوقت الراهن.

سألت باستغراب: أعمالك؟!

فقال هولمز ضاحكاً: ألم تعرف؟ نعم، فقد كتبت عدة أبحاث تتناول موضوعات تقنية، فهذا على سبيل المثال بحث عن التمييز بين أنواع رماد التبغ المختلفة، وفيه وصفت شكل التبغ المستخدَم في مئة وأربعين نوعاً من اللفائف والغليون، وقد زودته بلوحات ملونة توضح الاختلافات بين أنواع الرماد. هذا الموضوع تَظهر أهميته في البحث الجنائي، فعلى سبيل المثال: لو أثبَتَّ أن جريمة ما قد ارتُكبت بواسطة رجل يدخن تبغاً هندياً فسوف تَضيق دائرة البحث عن المشتبَه بهم. إن الخبير يستطيع ملاحظة الفرق بين الرماد الأسود لتبغ ترينكنوبولي والزغب الأبيض المتخلف عن تبغ عين الطائر بالوضوح الذي يمكن أن يميز به بين البطاطا والملفوف.

علقت قائلاً بإعجاب: إنك تتعامل مع دقائق الأمور بعبقرية فذّة.

- لأنني أقدِّر أهميتها الكبيرة. وها هو بحثي الآخر عن اقتفاء الأثر، ومعه بعض الملاحظات عن استعمال معجون من الجصّ والماء كوسيلة لحفظ الأثر. وعندي أيضاً بحث بسيط مثير للفضول عن تأثير الحرفة على شكل اليدين، مع صور توضح الفرق بين أيدي أصحاب الحِرَف المختلفة، كبنّائي الأسقف والبحّارة والنساجين وملمّعي الألماس... هذا العلم له

أهمية عملية عظمى للمُخبرين المتخصصين في علم الجريمة، ولا سيما في قضايا الجثث المجهولة واكتشاف المجرمين السابقين. ولكن، آه، ها أنا أضجرك بهواياتي مرة ثانية!

فأجبته بصدق قائلاً: على الإطلاق، إن الأمر يثير اهتمامي بشكل كبير، لا سيما وقد سنحت لي فرصة ملاحظة تطبيقك العملي لهذه الأبحاث. ولكنك تحدثت الآن عن الملاحظة والاستنتاج كصفتين منفصلتين، أما أنا فأراهما متلازمتين،

رسم سدني باجيت (١٩٠٤) Sidney Paget (1904)

حيث تقود إحداهما إلى الأخرى حتماً.

فأجاب وهو يسترخي في مقعده بأبّهة ويرسل من غليونه أكاليلَ من الدخان الكثيف: ليس حتماً. على سبيل المثال: الملاحظة توضح لي أنك ذهبت هذا الصباح إلى مكتب بريد شارع ويغمور، أما الاستنتاج فهو الذي يعرّفني أنك أرسلت برقية وأنت هناك.

قلت: هذا صحيح! كلا الأمرين صحيح! ولكن يجب أن أعترف بأنني لا أعلم كيف وصلت إلى هذا الاستنتاج، فقد كان ذلك قراراً مفاجئاً لم أخبر به أحداً.

أجاب هولمز وهو يضحك من دهشتي قائلاً: الأمر على درجة كبيرة من البساطة. إنه بسيط بشكل غريب لدرجة تجعل الشرح أمراً لا داعي إليه، وإن كان سيساعد على تحديد الفرق بين الملاحظة والاستنتاج. بالملاحظة رأيت بعض التراب الأحمر الناعم يلتصق بمقدمة حذائك، وقد كنت أعرف أنهم يبنون رصيفاً في الناحية المقابلة لمكتب شارع ويغمور تماماً، وقد فرشوا هناك تراباً لا يستطيع الداخل إلى مكتب البريد إلا أن يمشي عليه، وله نفس درجة اللون الأحمر المميّزة التي لا توجد -حسبما لاحظت- في أي مكان آخر مجاور. حتى الآن الأمر مجرد ملاحظة، أما الباقي فاستنتاج.

- جميل، لكن كيف استنتجت أنني أرسلت برقية؟

- عرفت أنك لم تكتب خطاباً لأنني جلست أمامك طَوال فترة الصباح، ثم إنني رأيت في دُرْج مكتبك المفتوح

كمية من الطوابع ورزمة كبيرة من البطاقات البريدية، فما الذي سيدفعك للذهاب إلى مكتب البريد إذا لم يكن من أجل إرسال خطاب ولا شراء طوابع وبطاقات؟ لم يبقَ إلا أنك سترسل برقية. حين تستبعد كل الاحتمالات الأخرى يكون الاحتمال الباقي هو الحقيقة.

أجبت بعد تفكير قصير: في هذه الحالة كان الاحتمال الذي ذكرتَه هو الحقيقة بالتأكيد، ولكن هذا المثال كان شديد البساطة على أية حال، فهل ستعتبرها وقاحة مني لو حاولتُ وضع نظرياتك في اختبار أصعب؟

قال: بل على العكس، سأكون سعيداً بالنظر في أي قضية تعرضها عليّ.

- لقد سمعتك تقول إن الإنسان لا يستخدم أي غرض بشكل يومي متكرر دون أن يترك أثراً يميز صفاته الشخصية، بحيث يستطيع الملاحِظ المدرَّب أن يعرفها. حسناً، ها هي ساعةٌ آلَتْ ملكيتها إليّ مؤخراً، فهل لك أن تعطيني فكرة عن شخصية مالكها السابق وعاداته؟

شعرت ببعض التسلية وأنا أعطيه الساعة لأن الاختبار كان مستحيلاً في اعتقادي، وقد قصدت منه أن يكون درساً ضد النبرة المغرورة المبالَغ فيها التي ينتهجها هولمز في بعض الأحيان.

أمسك الساعة بيده ونظر إليها بتمعّن، ثم فتح غطاءها الخلفي ليفحص أجزاءها الداخلية بعينيه المجردتين في

البداية، ثم بعدسته المكبرة القوية. ومنعتُ نفسي من الابتسام بصعوبة حين أغلق غطاءها أخيراً وأعادها إليّ وعلى وجهه علامات خيبة الأمل، ثم علق قائلاً: لم أستطع العثور على معلومات كثيرة، فالساعة نُظفت حديثاً مما جعلني أفقد أغلب ما أستند إليه في استنتاجي من حقائق ذات دلالة.

أجبته قائلاً: معك حق، فقد نُظِّفت قبل أن تُرسَل إليّ.

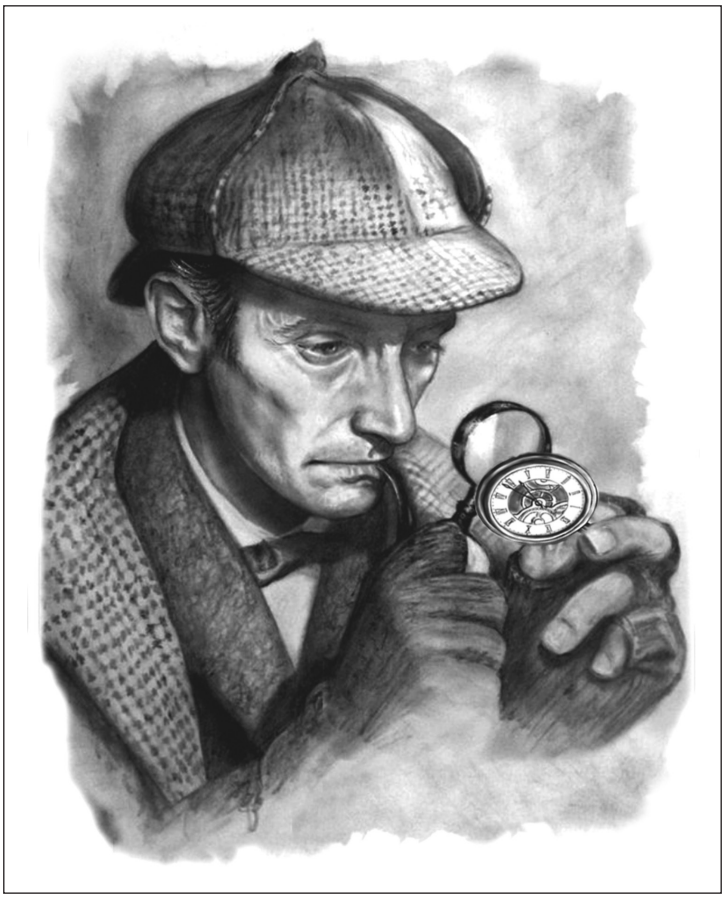

اتهمت رفيقي في سرّي بأنه يغطي فشله بتقديم عذر تافه، فما هي المعلومات التي كان يتوقع أن يجدها في الساعة قبل تنظيفها؟ على أنه ما لبث أن قال وهو يحدق إلى السقف بعينين حالمتين تفتقدان إلى البريق: على الرغم من أن بحثي لم يكن مُرْضياً إلا أنه لم يكن عديمَ الجدوى تماماً. أرجو أن تصحح معلوماتي إذا أخطأت، فأنا أقدّر أن الساعة كانت ملكاً لأخيك الأكبر الذي ورثها بدوره عن أبيك.

- لا بد أنك وصلت إلى هذه الحقيقة من حرفَي الهاء والواو المنقوشَين على ظهر الساعة؟

- تماماً، فالواو تشير إلى اسم عائلتك، أما تاريخ صنع الساعة فيعود إلى خمسين عاماً مضت تقريباً، وللحروف الأوّلية المنقوشة العمرُ نفسه، وهذا ما جعلني أعتقد أنها صُنعت لجيل سابق، والساعات الثمينة تورَّث عادة للابن الأكبر، وقد مات أبوك -لو لم تَخُنّي ذاكرتي- منذ سنوات طويلة، لذلك فلا بد أن الساعة كانت مع أخيك الأكبر.

قلت: ما تقوله صحيح حتى الآن. هل وجدت شيئاً آخر؟

- لقد كان رجلاً غير منظم في عاداته، غير منظم على الإطلاق، بل كان شخصاً مهملاً في الحقيقة، فعلى الرغم من أنه كان يملك إمكانيات جيدة إلا أنه لم يستغلّها بشكل صحيح، فعاش في فقر تخلّلَته فتراتٌ قصيرة من الرخاء، وأخيراً أغرق نفسه في الشراب حتى مات. هذا كل ما استطعت الوصول إليه.

قفزت واقفاً عن مقعدي ورحت أتجول في الغرفة بصبر نافد وأنا أعرج بسبب الألم في ساقي وقد تملكني شعور هائل بالمرارة، ثم قلت: ما فعلتَه غير لائق يا هولمز، لم أظن أنك قد تنحدر إلى هذا المستوى. لقد تحريت عن تاريخ أخي التعس ثم ها أنت تتظاهر الآن بأنك استنتجت هذه المعلومات بطريقة خادعة! لا يمكن أن تتوقع مني أن أصدق أنك عرفت كل ذلك من ساعة أخي القديمة. لقد كان ما صنعتَه عملاً شائناً وغيرَ لطيف، ولكي أكون صريحاً معك: ويشوبه أيضاً بعض الاحتيال.

قال بلطف: أرجو أن تتقبل أسفي يا دكتوري العزيز، فقد نظرتُ إلى المسألة بطريقة علمية منهجية مجردة ونسيت كيف يمكن أن يكون الأمر مؤلماً وشخصياً لك! ولكني أؤكد لك أنني لم أعرف حتى أن لك أخاً إلى أن أعطيتني هذه الساعة.

- فكيف إذن عرفت تلك الحقائق بالله عليك؟ كل المعلومات التي ذكرتها صحيحة تماماً.

- آه! هذا من حسن الحظ، فلم أذكر إلا ما رجّحته من احتمالات، ولم أتوقع أن تأتي بهذه الدقة.

- ولكنه لم يكن مجرد تخمين.

- لا، لا. أنا لا ألجأ إلى التخمين، فالتخمين عادة رديئة تدمر القدرة على التفكير المنطقي، فما قد يبدو لك غريباً يكون كذلك فقط لأنك لا تتبع سلسلة التفكير المنطقي التي أتبعها ولا تلاحظ الوقائع البسيطة التي قد تقوم عليها

استنتاجات مهمة. لقد بدأت كلامي بأن أخاك كان مهملاً، وحين تلاحظ غطاء الساعة السفلي ستجد أنه ليس منبعجاً في مكانين مختلفين فحسب، ولكنه أيضاً مخدوش وتملؤه الآثار التي تدل على أنه اعتاد أن يحتفظ بقطع صلبة أخرى في الجيب نفسه، كالعملات المعدنية والمفاتيح. وهكذا فلم يكن استنتاجاً فَذّاً بالتأكيد أن أفترض أن مَن يتعامل بهذه الاستهانة مع ساعة قيمتها خمسون جنيهاً لا بد أن يكون رجلاً مهملاً، كما أنه ليس من المستبعد أن نستنتج أن الرجل الذي ورث غرضاً بمثل هذه القيمة الكبيرة كانت حياته مؤمَّنة بشكل جيد جداً في النواحي المادية الأخرى كلها.

أومأت لأُظهر له أنني أتابع تحليله المنطقي فاستطرد قائلاً: من المألوف لدى سماسرة الرَّهن في إنكلترا أن ينقشوا أرقام التذاكر بسِنّ دبوس على علبة الساعة من الداخل، فهذا أسهل من وضع بطاقة وأكثر أمناً حيث لا خطرَ من فقد الرقم أو تبديله. وقد لاحظت بعدستي المكبرة أربعة أرقام في داخل علبة الساعة، فاستنتجت أن أخاك كانت تضيق به الحال فيلجأ إلى السماسرة، كما استنتجت حتماً أنه كان يمر بفترات رخاء من حين إلى آخر، وإلا لما استطاع استرجاع الساعة المرهونة. وأخيراً أطلب منك النظر إلى الصفيحة المعدنية الداخلية التي تحتوي على ثقب مفتاح شحن الساعة، انظر إلى العدد الهائل من الخدوش المحيطة بالثقب! إنها علامات تدل على انزلاق المفتاح بعيداً عن الثقب، فهل يمكن لرجل في كامل وعيه أن يخطئ الثقب مسبّباً كل هذه الخدوش؟ في حين أنك ستجد

هذه الخدوش في ساعة أي سكّير، فهو يملؤها ليلاً فيترك تلك الآثار دليلاً على عدم ثبات يده، فأين الغموض في كل هذه الاستنتاجات؟

أجبته قائلاً: إنه واضح وضوح الشمس، وأنا نادم على سوء الظن بك. كان يجب أن أثق أكثر بقدراتك الهائلة. هل تسمح لي بأن أسألك إن كنت تتابع أي تحقيق في الوقت الحاضر؟

- لا، ولهذا السبب أشعر بالملل. قف عند النافذة هناك وانظر: هل سبق أن رأيت العالم بمثل هذه الوَحشة والكآبة والركود؟ انظر كيف يخيم الضباب الكثيف على الشوارع ليحيط بالمنازل الداكنة، فما الذي يمكن أن يكون أكثر مللاً ورتابة؟ وما فائدة امتلاك القدرات حين لا يجد المرء عملاً يسخّرها فيه؟ إن الجرائم مبتذَلة والحياة مملة ولا يوجد ما يثير الاهتمام على ظهر هذه الأرض.

لم أكَد أفتح فمي لأجيب على هذه الخطبة المطوّلة حتى دخلت صاحبة المنزل حاملةً بطاقةَ تعريف، وقالت موجهة كلامها إلى رفيقي: سيدة شابة تطلب مقابلتك يا سيدي.

قرأ هولمز على البطاقة: «الآنسة ماري مورستان». ثم قال: لا أذكر هذا الاسم. اطلبي من الشابة الدخول يا سيدة هَدسون. لا تغادر يا دكتور، فأنا أفضّل أن تبقى.

* * *

الفصل الثاني

عرضُ القضيّة

دخلت الآنسة مورستان الغرفة بخطى ثابتة ورباطة جأش ظاهرة. كانت شابة شقراء ضئيلة الحجم لطيفة أنيقة تمتاز ملابسها بذوق رفيع، على أن فيها نوعاً من البساطة وعدم الزخرفة مما يوحي بضيق ذات اليد. كان الثوب الذي ترتديه بلون الصوف الطبيعي القاتم الكئيب وقد خلا من أي زينة، وقد وضعت على رأسها قبعة صغيرة لها درجة اللون الباهت نفسه، يلطّفها فقط ما يشبه الريشة البيضاء على أحد الجانبين.

لم يتمتع وجهها بتناسق الملامح ولكنه اكتسى بتعبير ودود ولطيف، كما شعّت عيناها ببريق مميز روحاني حَنون. بخبرة عن النساء امتدت عبر عدة أقطار في ثلاث قارات منفصلة لم يسبق لي أن رأيت وجهاً يبشّر بطبيعة نقيّة ذات شعور رقيق مثل وجه هذه الشابة. وحين جلست على الكرسي الذي قدمه لها شيرلوك هولمز لم أستطع إلا أن ألاحظ أن شفتيها كانتا ترتعشان، كما ارتجفت يداها وظهرت عليهما كل أعراض الانفعال الداخلي الشديد، ثم قالت: لقد جئت

لمقابلتك -يا سيد هولمز- لأنك ساعدت صاحبة عملي السيدة سيسيل فورستر في حل مشكلة عائلية بسيطة، وقد تأثرَت برقّتك ومهارتك كثيراً.

كرر هولمز الاسم بتأمل: السيدة سيسيل فورستر؟ أعتقد أنني لم أقدم لها إلا مساعدة متواضعة، فالقضية كانت بسيطة جداً كما أتذكرها.

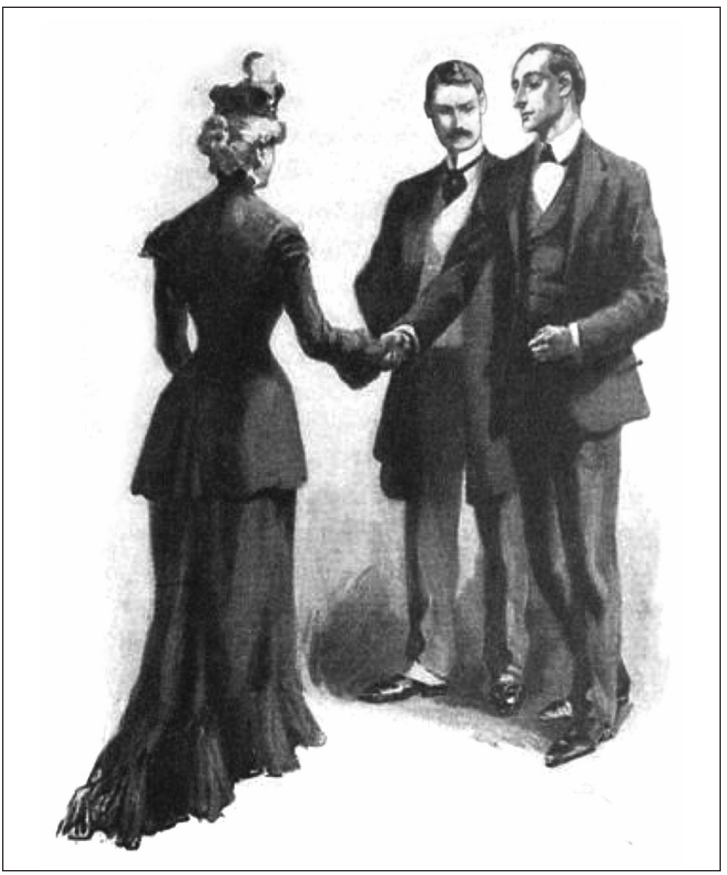

رسم ك كولستون (١٩٠٤) C. Coulston (1904)

- لم يكن هذا رأيَها. ولكنك لن تصدر الحكم نفسه على قضيتي على أية حال، فأنا لا أكاد أتصور ما هو أكثر غرابة وغموضاً من الموقف الذي وجدت نفسي فيه.

فرك هولمز يديه ولمعت عيناه ومال في مقعده إلى الأمام وقد بدا على ملامح وجهه البارزة الحادّة التركيز الشديد، ثم قال بنبرة عملية نشطة: قُصّي علينا قضيتك.

شعرت بأنني في موقف حرج، فقلت وأنا أنهض قائماً: سأنصرف بعد إذنكما.

وقد دُهشت بشدة حينما رفعت الشابة يدها المغطاة بالقفاز لتوقفني قائلة: لو تكرم صاحبك وبقي معنا فقد يقدم لي خدمة لا تقدر بثمن.

عدت إلى الجلوس، فأكملت قائلة: الوقائع باختصار هي أن أبي كان ضابطاً في إحدى الكتائب بالهند، وقد أعادني إلى الوطن وأنا ما زلت صغيرة جداً. في ذلك الوقت ماتت أمي ولم يكن لي في إنكلترا أقارب، فأرسلني إلى مدرسة داخلية مريحة في أدنبرة، وبقيت هناك حتى سن السابعة عشرة. في عام ١٨٧٨ حصل أبي الذي كان أقدمَ الضباط في كتيبته على إجازة طويلة مدتها اثنا عشر شهراً وعاد إلى الوطن، وقد أرسل إليّ برقية من لندن يخبرني فيها بأنه وصل سالماً ويطلب مني الحضور في الحال، وزوّدني بعنوانه في فندق لانغهام. كانت رسالة لطيفة تفيض بالحب والحنان على ما أذكر. وحين وصلت إلى لندن توجهت إلى فندق لانغهام،

حيث أخبروني أن الكابتن مورستان كان يقيم هناك ولكنه خرج في الليلة السابقة ولم يعُد، فانتظرت طوال اليوم دون أي أخبار عنه، وفي تلك الليلة وبناء على نصيحة مدير الفندق اتصلت بالشرطة، ثم نشرنا إعلاناً في الصحف صباح اليوم التالي، ولكن بحثنا لم يثمر عن أي نتيجة. منذ ذلك اليوم وحتى الآن لم نسمع أخباراً عن والدي المسكين. لقد عاد إلى الوطن يملؤه الأمل في أن يجد بعض الراحة والسلام، ولكن عوضاً عن ذلك...

وضعت يدها على حلقها وقطعت الجملة قبل أن تكملها بشهقة مخنوقة، فسألها هولمز وهو يفتح مفكرته قائلاً: والتاريخ؟

- لقد اختفى في الثالث من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٧٨، أي منذ ما يقرب من عشرة أعوام.

- وماذا عن أمتعته؟

- تركها في الفندق، ولم يكن فيها ما يفيد، فقط بعض الملابس والكتب ومجموعة كبيرة من التحف من جُزر أندامان، فقد كان أحدَ الضباط المسؤولين عن حراسة المَنفيين المسجونين في تلك الجزر.

- هل له أي أصدقاء في المدينة؟

- لا نعرف إلا واحداً فقط هو الميجور شولتو من كتيبته نفسها، الكتيبة الرابعة والثلاثين مشاة، وكان قد تقاعد في

وقت سابق وعاش شمال نورْوُد. وقد اتصلنا به، لكنه لم يعرف شيئاً، حتى إنه لم يعرف أن زميله كان في إنكلترا.

علق هولمز قائلاً: إنها قضية غريبة.

- لم أصف لك الجزء الأكثر غرابة بعدُ. منذ ستة أعوام، في الرابع من أيّار (مايو) عام ١٨٨٢ على وجه الدقة، ظهر إعلان في صحيفة «التايمز» يسأل عن عنوان الآنسة ماري مورستان وينص على أن من مصلحتها أن تعلن عن نفسها. لم يكن في الإعلان اسم ولا عنوان، وكنت قد بدأت العمل في ذلك الوقت مربّيةً مع أسرة السيدة سيسيل فورستر، وبناء على نصيحتها نشرت عنواني في عمود الإعلانات، فوصلني في اليوم نفسه طرد بريدي وجدته يحتوي على لؤلؤة براقة كبيرة جداً، ولم يكن معها أي كلام مكتوب! منذ ذلك الوقت وفي التاريخ نفسه من كل عام يصلني دائماً صندوق مماثل يحتوي على لؤلؤة مشابهة دون أن يحتوي على أي دليل عن المرسِل، وقد قدّر الخبراء أن اللآلئ من نوع نادر وأن قيمتها كبيرة. يمكنك أن ترى بنفسك كم هي جميلة.

فتحت صندوقاً صغيراً لتعرض علينا ستة من أروع ما رأيت من اللآلئ، فقال شيرلوك هولمز: إن قصتك مثيرة جداً للاهتمام، فهل حدث لك أي شيء آخر؟

- نعم، ولم يسبق أن حدث لي مثله قبل اليوم، ولهذا أتيت إليك، فقد تسلمت هذا الخطاب صباح اليوم. يمكنك أن تقرأه بنفسك.

قال هولمز: شكراً، والظرف أيضاً إذا سمحت. الختم البريدي من جنوب غرب لندن بتاريخ السابع من تمّوز (يوليو)، في الزاوية بصمة إبهام رجل، ربما كانت لساعي البريد. الورق من أفضل الأنواع والظرف من ذلك النوع الذي يكلف ستة بنسات للرزمة. إنه رجل دقيق في اختيار أدواته المكتبية! ولا يوجد أي عنوان. ثم قرأ:

رسم رتشارد غوتْشمِت (١٩٠٢) Richard Gutschmidt (1902)

كوني عند العمود الثالث من الناحية اليسرى خارج مسرح ليسوم الليلة عند الساعة السابعة. إذا شعرت بالريبة فأحضري معك صديقين، فأنت امرأة مظلومة وسوف تحصلين على العدالة.

لا تحضري الشرطة، ولو فعلتِ سيضيع كل شيء.

صديقك المجهول

علّق قائلاً: إن هذا لغز محير حقاً! ما الذي تنوين فعله يا آنسة مورستان؟

- هذا هو ما جئت أسألك عنه.

- سنذهب إذن بالتأكيد، أنت وأنا و... نعم، بالتأكيد الدكتور واطسون هو الرجل المناسب، فقد عملت معه من قبل، وقد قال مراسِلك إنك تستطيعين إحضار صديقين.

سألَت ببعض الرجاء في صوتها وتعبير وجهها قائلة: ولكن هل سيقبل المجيء؟

قلت بحماسة: سيسعدني ويشرّفني أن أقدّم أي خدمة.

أجابت قائلة: إنكما في غاية اللطف، فقد عشت حياة منعزلة وليس لي أصدقاء ألجأ إليهم. إذا عدتُ إليكم هنا في الساعة السادسة سيكون الموعد مناسباً على ما أعتقد؟

قال هولمز: يجب أن لا تتأخري عن هذا التوقيت. قبل انصرافك أن أحب أن أسألك: هل خط اليد هنا مشابه لخط العناوين على طرود اللآلئ؟

فأجابت وهي تقدم ستّ قصاصات من الورق: إنها معي هنا.

- إنك حقاً عميلة مثالية وتملكين الحدس السليم. فلنرَ الآن.

نشر الأوراق على الطاولة ونقل نظره بسرعة من ورقة لأخرى ثم قال: لقد غيّر خطه للتمويه، ولكن لا شك أنه صاحب الخط نفسه فيها كلها. لقد كُتبت هذه الأوراق كلها بيد شخص واحد بالتأكيد. لا أحب أن أُحْيي في نفسك آمالاً كاذبة يا آنسة مورستان، ولكن هل لاحظت أي تشابه بين هذا الخط وخط أبيك؟

- لا، بل إنه مختلف كل الاختلاف.

- هذا ما توقعت سماعه منك. حسناً، سننتظرك إذن في السادسة. أرجو أن تسمحي لي بالاحتفاظ بالأوراق، فقد أعيد فحصها قبل ذلك الوقت، فما زالت الساعة الثالثة والنصف فقط. إلى اللقاء إذن.

قالت زائرتنا: إلى اللقاء.

وبعد أن نقلت نظرها من أحدنا إلى الآخر وضعت اللآلئ في حقيبتها وأسرعت خارجة.

* * *

حين نظرت من النافذة شاهدتها تسير مسرعة على طول الشارع حتى أصبحت القبعة القاتمة والريشة البيضاء نقطة

صغيرة وسط الزحام المعتم، ثم هتفت وأنا التفت نحو رفيقي قائلاً: يا لها من امرأة جذابة!

أشعل شيرلوك غليونه ورجع إلى الخلف بعينين ذابلتين وقال بضعف: حقاً؟ لم ألحظ ذلك.

صحت قائلاً: أنت حقاً إنسان آليّ! إنني أشعر بشيء غير إنساني يشوب تصرفاتك في بعض الأحيان.

ابتسم بلطف قائلاً: من المهم بالدرجة الأولى أن لا تسمح لحكمك بالتأثر بالصفات الشخصية، فالعميل بالنسبة لي مجرّد عنصر في مسألة. إن الصفات التي تؤثر فيك عاطفياً تمنعك من التفكير المنطقي المحايد، وأنا أؤكد لك أن المرأة التي فاقت كل النساء اللاتي عرفتهن جاذبية قد أُعدمت لتسميمها ثلاثة أطفال صغار طمعاً في أموال التأمين، وأن الرجل الأكثر إثارة للنفور في كل معارفي إنسان خيّر أنفق ربع مليون جنيه على فقراء لندن.

- ولكن في هذه الحالة...

- أنا لا أوافق على أي استثناءات، فالاستثناء يدحض القاعدة. هل واتتك الفرصة يوماً لتدرس الشخصية من خلال خط اليد؟ ما رأيك بكتابة هذا الرجل؟

- إنها واضحة مقروءة وتدل على رجل عمَلي يتمتع بشخصية قوية بعض الشيء.

هز هولمز رأسه وقال: لو دققت ستجد أنه ترك بعض

الحروف بلا نقط أو أن نقطة الحرف جاءت فوق الحرف الذي قبله، والرجال الذين يتمتعون بالهدوء والتركيز لا يصنعون ذلك مهما كانت كتابتهم سريعة وغير رسمية.

وبعد لحظة صمت قال: سأخرج الآن لإجراء بعض التحريات، وسأعود بعد ساعة.

جلست في النافذة وقد سرح عقلي في زائرتنا، في ابتسامتها ونبرة صوتها المنخفض المعبِّر وفي اللغز الغريب الذي خيّم على حياتها. لو أنها كانت في السابعة عشرة حين اختفى أبوها فلا بد أنها في السابعة والعشرين من عمرها الآن... عمر لطيف، فيه يفقد الشباب خجله الزائد وتُكسبه الخبرة بعض الرزانة.

جلست مستغرقاً في تأملاتي لبعض الوقت ثم قطعتها فجأة وقد سيطرَت عليّ موجة من التشاؤم، فمَن أنا لأتجرأ على التفكير بمثل هذه الأمور؟ما أنا إلا طبيب متقاعد من الجيش بساقٍ مصابة ضعيفة وحساب بنكي أضعف. ثم إنها مجرّد عنصر في مسألة لا أكثر، فإذا كان مستقبلي مظلماً فمن الأفضل أن أواجهه وحدي بشجاعة بدلاً من الغرق في أوهام خيالية.

* * *

الفصل الثالث

السعي بحثاً عن حل

عاد هولمز في الخامسة والنصف. كان منشرحاً متحمساً ومعنوياته ممتازة، وهي حالة مزاجية تعتريه بالتناوب مع نوبات من الاكتئاب الشديد. قال وهو يتناول كوب الشاي الذي قدمته له: هذه القضية يشوبها لغز غامض، فالوقائع لا تسمح إلا بتفسير واحد فيما يبدو.

هتفت به بانفعال: ماذا؟! هل توصلت إلى الحل بهذه السرعة؟

- سيكون من المبالغة أن أقول ذلك، ولكني اكتشفت حقيقة ذات دلالة، هذا كل ما في الأمر، ولكنها في غاية الأهمية على أية حال. ما زال عليّ إضافة التفصيلات بالطبع، فقد اكتشفت لتوّي -بعد أن رجعت إلى مجلدات جريدة التايمز القديمة- أن الميجور شولتو (المقيم شمال نورْوُد والذي كان سابقاً ضابطاً في الكتيبة الرابعة والثلاثين مشاة في بومباي) قد مات في الثامن والعشرين من نيسان (إبريل) عام ١٨٨٢.

- قد أكون في منتهى البلادة يا هولمز، لأنني فشلت في فهم دلالة ما تقول.

- ألم تفهم؟ إنك تدهشني! إذن انظر إلى الأمر بهذا التسلسل: الكابتن مورستان اختفى، والشخص الوحيد في لندن الذي يُحتمل أن يكون قد زاره هو الميجور شولتو، وقد أنكر الميجور شولتو أنه سمع بوجوده في لندن. بعد أربعة أعوام يموت شولتو، وبعد موته بأسبوع تتلقى ابنة الكابتن هدية قيِّمة، وتتكرر هذه الهدية من عام إلى آخر. والآن وصل الأمر إلى تلقيها خطاباً يصفها بالمرأة المظلومة، فما الظلم الذي يمكن أنه يشير إليه سوى حرمانها من والدها؟ ولماذا بدأت الهدايا بعد موت شولتو مباشرة، ما لم يكن وريث شولتو يعرف شيئاً عن اللغز ويرغب في تعويضها؟ ألديك أي نظرية بديلة يمكن أن تتسق مع الحقائق؟

- ولكن يا له من تعويض غريب، ويا لغرابة الطريقة التي قُدِّم بها! وأيضاً لماذا يرسل الرسالة الآن بدلاً من إرسالها منذ ستة أعوام؟ ثم إن الخطاب يتحدث عن تحقيق العدالة لها، فما هو الإنصاف الذي قد تحصل عليه؟ من المبالغ فيه أن نفترض أن والدها لا يزال على قيد الحياة، وأنت لا تعرف بوقوع أي ظلم آخر عليها في هذه القضية.

قال هولمز متأملاً: حسناً، توجد في هذه القضية بعض الأمور التي يصعب فهمها، بالتأكيد توجد أمور مستعصية على الفهم، ولكن مهمتنا الليلة كفيلة بحلها كلها. آه! ها قد وصلت

عربة أجرة وفي داخلها الآنسة مورستان. هل أنت جاهز؟ من الأفضل أن ننزل إذن، فالوقت يكاد يدركنا.

التقطت قبعتي وعصاي القوية، كما لاحظت أن هولمز أخذ مسدسه من دُرْجه ووضعه في جيبه، وهو تصرف يدل على توقّعه أن يكون عملنا الليلة خطيراً.

تدثرت الآنسة مورستان بعباءة داكنة، وكان وجهها الرقيق هادئاً ولكنه شاحب، فلا بد لها كامرأة أن تشعر ببعض القلق بسبب المغامرة الغريبة التي كنا بصدد الدخول فيها. وعلى الرغم من ذلك فإن تمالكها لنفسها كان رائعاً، وقد أجابت عن طيب خاطر على الأسئلة الإضافية القليلة التي طرحها عليها هولمز، فقالت: كان الميجور شولتو صديقاً حميماً لأبي، فقد حفلت خطاباته دائماً بذكره، وكان هو وأبي يقودان الحراس في جزر أندامان، وبذلك واجها الكثير معاً. بالمناسبة، لقد عثرت في مكتب أبي على ورقة مثيرة للفضول لم يستطع أحد فهمها. لا أظن أن لها أهمية، ولكني فكرت في أنك قد تحب إلقاء نظرة عليها فأحضرتها معي. ها هي.

بسط هولمز الورقة بعناية ووضعها على ركبتيه، وفحصها كلها بعدسته بدقة كبيرة، ثم علق قائلاً: إنها ورقة هندية الصنع، وقد تم تثبيتها لبعض الوقت على لوح خشبي بدبوس، والرسم التخطيطي الموجود فيها يبدو خريطة لمبنى واسع فيه قاعات كبيرة وممرات طويلة، وفي نقطة معينة علامة مرسومة بالقلم الأحمر وقد كُتبت فوقها بخط باهت

وبالقلم الرصاص هذه الكلمات: « ٣,٣٧ من اليسار»، وفي الزاوية اليسرى أربعة صلبان في صف واحد وقد تلامست أذرعتها، وقد كتبت بجوارها بحروف خشنة هذه الكلمات: «علامة الأربعة: جوناثان سمول، ماهوميت سينغ، عبد الله خان، دوسْت أكبر». أعترفُ بأنني لا أعرف كيف يمكن أن تكون لهذه الورقة علاقة بالقضية، ولكن من الواضح أنها وثيقة مهمة، فقد حُفظت داخل محفظة جيب لأن جانبَيها نظيفان بالدرجة نفسها.

- صحيح، لقد وجدناها في محفظته.

- حافظي عليها جيداً يا آنسة مورستان، فقد يتضح أنها مفيدة جداً. لقد بدأت أميل إلى الظن بأن هذه القضية قد تكون أكثر عمقاً وأشد غموضاً مما افترضتُ في البداية. ينبغي أن أعيد دراسة أفكاري.

اضطجع في مقعده بعربة الأجرة، وفهمت من حاجبَيه المعقودين ومن نظرته الشاردة أنه كان يفكر بتركيز، فتبادلت مع الآنسة مورستان حواراً خافتاً يدور حول مغامرتنا الحالية وما يمكن أن ينتج عنها، واستمر رفيقنا على صمته حتى نهاية الرحلة.

* * *

كنا في مساء يوم من أيام أيلول (سبتمبر)، ولم تكن الساعة قد بلغت السابعة بعد، ولكن اليوم كان كئيباً، وقد خيّم على لندن ضباب كثيف مع قطرات من المطر الخفيف.

كانت الشوارع موحلة فظهرت أنوار المصابيح على طول شارع ستراند كبقع ضبابية من الضوء المعتم الذي يُلقي ضوءاً دائرياً باهتاً على الرصيف الموحل، فيما انسابت أنوار المحلات من النوافذ لتشعّ بضوء أصفر باهت يتخلل الجو الرطب المشبع بالبخار عبر الطريق المزدحم.

بدا لي أن شيئاً مخيفاً يكتنف السلسلة اللامتناهية من الوجوه الحزينة والفرحة والمرهَقة والسعيدة التي كانت تتنقل بسرعة لتمرّ كالأطياف عبر تلك الخيوط الضيقة من الضوء، كانت كتل البشر تنتقل بسرعة من العتمة إلى الضوء لتعود بعد ذلك إلى العتمة ثانية. وعلى الرغم من أنني لا أخضع عادة للأفكار الغامضة إلا أن المساء الغائم الكئيب والقضية الغريبة التي كنا نعمل فيها اتحدا ليسبّبا لي التوتر والاكتئاب، واستطعت أن أرى من سلوك الآنسة مورستان أنها كانت تعاني من الشعور نفسه. هولمز وحده استطاع قهر تلك المؤثرات البسيطة، كان يحمل مفكرته المفتوحة على ركبتيه ويدوّن فيها من حين إلى آخر بعض الملاحظات والأرقام.

توقفت عربتنا ونزلنا أمام مسرح ليسوم. كان الازدحام كثيفاً عند بابه الجانبي، أما من الأمام فكان سيل العربات الصغيرة والكبيرة يتدفق ليُنزل حمولته من رجال في ملابسهم الرسمية ونساء يرتدين ملابس السهرة ويتحلّين بالذهب والألماس. وعندما وصلنا إلى العمود الثالث، وهو مكان اللقاء، بادر بالحديث إلينا رجل نشط ضئيل الحجم داكن

البشرة يرتدي ملابس سائق عربة أجرة، قال: هل أنتما مَن جاء مع الآنسة مورستان؟

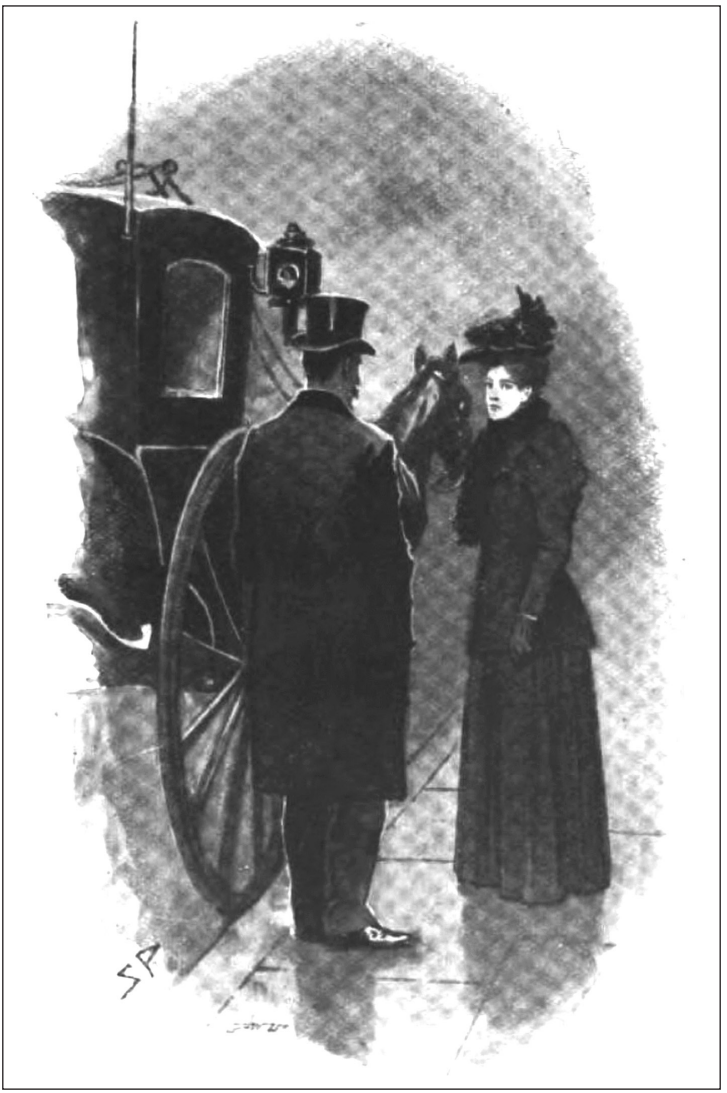

رسم سدني باجيت (١٨٩٨) Sidney Paget (1898)

قالت: أنا الآنسة مورستان وهذان السيدان صديقاي.

كانت العينان اللتان سلّطهما علينا ثاقبتين متشككتين بشكل غريب، ثم قال بأسلوب لا يخلو من قسوة: أرجو المعذرة يا آنسة، ولكني مضطر أن أطلب منك وعد شرف بأن رفيقيك ليسا من الشرطة.

- أتعهد لك بذلك.

أطلق صَفّارة عالية فجاءت عربة أجرة كبيرة، فركب الرجل الذي خاطبَنا في الأعلى بجوار السائق وركبنا نحن داخل العربة، وما كدنا نغلق بابها حتى حثّ السائق حصانه بالسوط فانطلقنا بسرعة عبر الشوارع الضبابية. كان الموقف مثيراً للفضول، فقد كنا نتجه إلى مكان مجهول في مهمة مجهولة. هل يمكن أن تكون هذه الدعوة خدعة؟ إنه افتراض مستبعَد، لأن لدينا من الأسباب ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن أموراً مهمة تتوقف على رحلتنا.

كعادتها كانت الآنسة مورستان رابطة الجأش ويبدو عليها التصميم، وقد سعيت لإبهاجها وتسليتها بقصص عن مغامراتي في أفغانستان، ولكني أنا نفسي شعرت بانفعال شديد بسبب موقفنا وبفضول أشدّ لمعرفة وجهتنا فجاءت قصصي مشوشة قليلاً، لدرجة أنها ما زالت تخبرني حتى اليوم أنني رويت حكاية عجيبة عن بندقية دخلت إلى خيمتي في عمق الليل فأطلقت عليها النار من شبل النمر ذي الماسورتين!

في البداية كانت عندي فكرة عن الاتجاه الذي انطلقنا

فيه، ولكني فقدت الاتجاه سريعاً بسبب سرعتنا والضباب ومعرفتي المحدودة بلندن، فلم أعد أعرف شيئاً عدا أننا مشينا لمدة طويلة، أما شيرلوك هولمز فلم يرتبك قط وأخذ يغمغم بالأسماء فيما كانت العربة تمر عبر الميادين وتسير في الأزقة المتعرجة. قال: روشستر رو، والآن نحن نمرّ بميدان فينسنت، وقد خرجنا الآن لنمشي على الطريق المؤدي إلى جسر فوكسهول. إننا نتجه إلى ريف صَرّي على ما يبدو. أجل، هذا ما ظننته، إننا على الجسر ويمكنكما رؤية النهر.

استطعنا بالفعل رؤية نهر التيمْز بلمحة سريعة وكانت المصابيح تلمع على الماء، ولكن عربتنا انطلقت مسرعة لتدخل سريعاً في متاهة من الشوارع على الجانب الآخر من الجسر، فاستمر هولمز بتسمية الأماكن التي نمر بها: طريق ووردسوورث، طريق بريوري، جادة لارك هول، ستوكويل بليس، شارع روبرت، جادة كولد هاربر... لا يبدو أن قضيتنا ستأخذنا إلى منطقة أنيقة!

كنا قد وصلنا بالفعل إلى منطقة كريهة ومثيرة للشك، فقد امتدت صفوف من منازل مبنية بأحجار باهتة ذات أشكال كئيبة تتخللها حانات ذات ألوان زاهية وأنوار براقة. ثم مررنا بصف من الفيلات ذات الطابقين ولكل منها حديقة أمامية صغيرة، ثم عدنا ثانية لنمر بصفوف طويلة من البيوت الحجرية الجديدة.

وأخيراً توقفت العربة أمام البيت الثالث في بداية أحد الشوارع. كانت كل البيوت الأخرى غير مأهولة، وكان ذلك

الذي وقفنا أمامه مظلماً مثلها ما عدا ضوءاً ضعيفاً وحيداً في شبّاك المطبخ. طرقنا الباب ففتحه على الفور خادم هندوسي، كان يرتدي ملابس فضفاضة شدّها في الوسط بحزام أصفر وعلى رأسه عمامة صفراء.

كان مشهداً في غاية الغرابة، ذلك الرجل الشرقي وهو يقف في مدخل وضيع لمنزل من الدرجة الثالثة في ضواحي لندن! قال: السيّد في انتظاركم.

في تلك اللحظة سمعنا صوتاً حاداً عالي النبرة صادراً من إحدى الغرف الداخلية، قال: أرشدهم إليّ مباشرة يا خِتْموتْغار.

* * *

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت لك قراءة ممتعة وعرَّفَتك بالرّواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية (وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com